قصة قصيرة

زائـر الليل

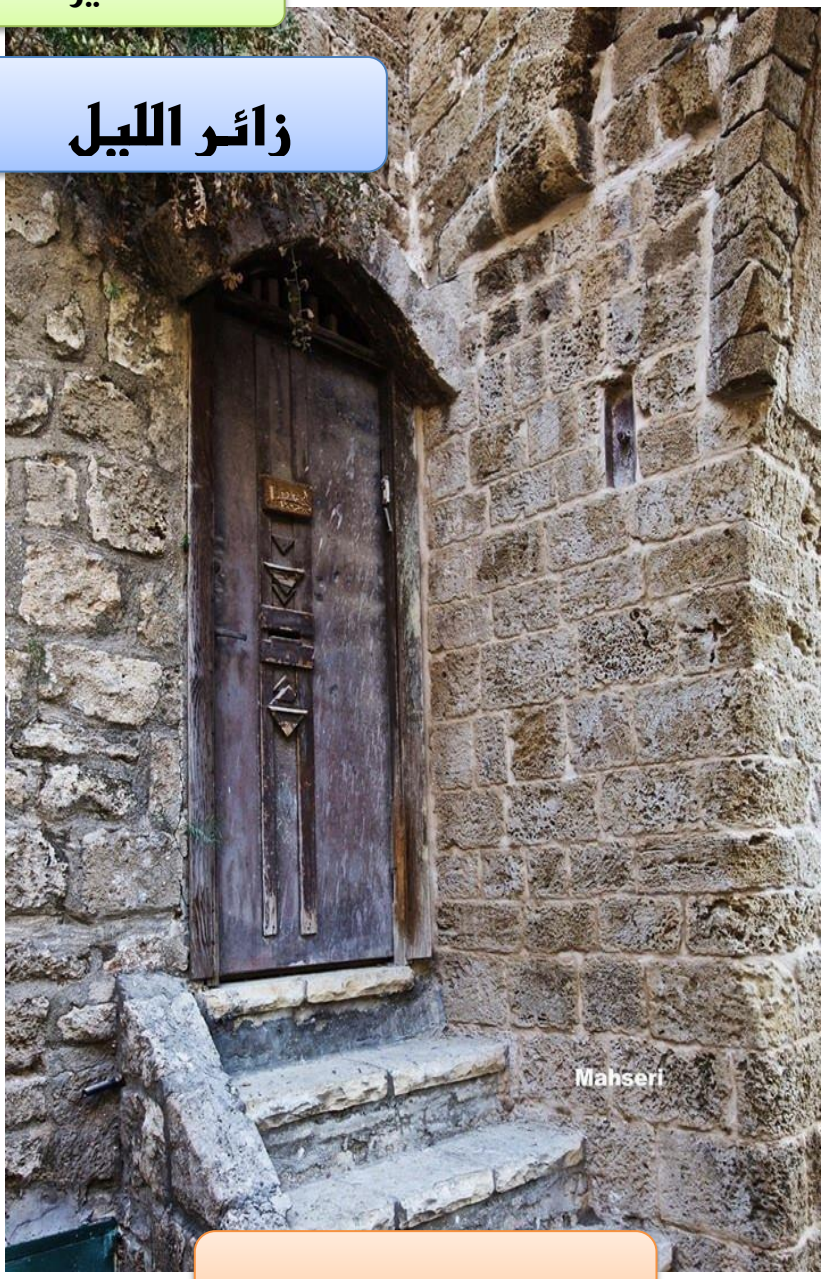

محمَد عيّاد

قصة قصيرة

زائر الليل

كتبها : محمَد عـيّاد

زَائــرُ اللَــيْل

في تلك الليلة من ليالي الحارة .. بدى لفادي عصران أنّ هناك فرصة سانحة لنْ تتكرر ، تحملها له هذه الليلة ! .. فالناس بالحارة في شدة انشغالهم بوافاة جاره : أحمد زينهم ، والذي فارق الحياة منذ نصف ساعة .. وقد ازداد ازدحامهم عند بيته ، فمنهم من يُلقي عليه نظرة الوداع الأخيرة ، ومنهم من لا تهمه هذه النظرة فيقف أمام البيت مصطنعا الحزن ، ثم يجلس على كرسي من الكراسي المنثورة بالحارة ، والتي أخرجها الجيران من بيوتهم على عجل ، وقد إتصل أحد الواقفين بالفِراشة كي ينصبوا سرادقًا عند مدخل الحارة ، واتصل آخر بشيخ قارئ للقرآن ليحي هذه الليلة ..

.. " فإن دخلتْ سميرة الحارة ملتحفة بردائها الأسود فلن يشعر بها أحد ألبته ، فالسيدات ينسلون إلى الحارة

كالنمل ، وتلك نملة مثلهم لكنها جاءت لتواسيني بدلا من أن تواسي أهل الميت ، فالحيّ أبقى من الميت! " كذا قال فادي محدثا نفسه ، وهو مطمئن تعلو شفتيه إبتسامه لطيفه .. وأردف : " .. ثم ماذا تفعل مواساة أهل الميت وكثرة العويل عنده ؟! هل ستعيده لأهله مرة أخرى ؟! أبدا ! .. إنما هي مظاهر كاذبة لإناس لا يعلمون شيئا عن الدنيا ! " .

.. وأسرع فادي للاتصال بسميرة على المحمول وأكد عليها أن تأتي بعباءتها السوداء ، ونبّهها بأنه حين تدخل الحارة لابد أنْ يعلو وجهها حزنٌ وكآبة ! .. وتصطنع أنها داخلة بيت المتوفي ثم تدلف مسرعة لبيته المجاور ، فستجد باب مدخل بيته مشْرَعا والمدخل مُظلم إذ أطفأ مصباحه .. وأخبارها أنْ تنتبه لدرجات السلم الموصل لباب شقته والذي واربه حتى يكن مستعدا لدخولها ، وقال : لا تطرقي الباب بل ادخلى مسرعه قبل ان يشعر بك احد ..

.. جهّــز فادي زجاجة الخمر ، ثم احتسي كأسين منها لينتشي بهما لحين أنْ تأتي سميرة .. وبعد ربع ساعة .. اندفع الباب بقوة ، فقال فادي بصوت مسموع : ادخلى وأغلقي الباب ! ..

فرد الآتي من ناحية الباب المظلم : "من هذه التى تريدها أنْ تدخل و تغلق الباب "

فلمح فادي شبحا لرجل قادم ، فقال باضطراب : من .. من؟!

فأجاب الشبح: أنا شادي! ما بالك مضطربا هكذا .. هل كنتَ تنتظر أحدا ؟

- لا .. بل .. نعم!! كنتُ انتظرُ امرأة ستأتي لتنظيف البيت .
- تنظيف البيت في تلك الساعة !

- .. هي مشغولة بالصباح وقد اتصلتْ بي وألحتْ عليّ أنْ تأتي ، ولأنّها تسعى على أيتامٍ وتحتاج للمال فقد أجبتُها .. وأسرع إلى زجاجة الخمر التى على المنضدة فألقاها في دولاب بجواره ..
- ما هذه؟! .. زجاجة خمر !
- لا ! بل هي زجاجة دواء !
- دواء ماذا !؟ .. أنها زجاجة خمر ..
- نعم هي زجاجة خمر ! .. وما شأنك بها !؟
- أمَا تستحي يا فادي! .. جارك ميت وأنتَ هنا تشرب الخمر .
- استحي مِنْ مَنْ ؟! الناس ليس لهم شأن بي.
- إنْ لم تستحي منَ الناس .. فاستحي من الله ! .
- وأين الله ؟!
- أعوذ بالله! .. ماذا تقول؟!

- أقول كما سمعتَ .. أنتَ أكثر إنسان يعلم كمْ عشتُ في كربٍ وضنكٍ في هذه الحياة ، فلما تلومني على الإلحاد ؟! ..
- هذا ما تخدع به نفسك! والحق أنك قد عشتَ حياةً هانئةً سعيدةً منذ نشأتك ، فقد رزقتَ بأبوين رحيمين .. فقاطعه فادي
- لكنهما ماتا ! .. رد شادي
- نعم ماتا ! .. ماتَ أبوك وأنتَ في الثانوية وأمك ماتتْ منذ عامين ، أي بعد أنْ كبرتَ وأصبحتَ تعتمد على نفسك في الحياة ، بل رزقك الله في حياة أمك وظيفة كم من شباب الحي يتمناها ، وورثتَ عنهما بيتًا تود أي عائلة لو تمتلك شقة واحدة منه بدلا من السكن بالإيجار .. ثم إنك تقول إنّ هذه الدنيا ضنك وكرب في أوقات يأسك وقنوطك أمَّا إذا أقبلتْ عليك الدنيا بملذاتها تودّ لو عمّرتَ بها ألف عام ! ..

- تطيل الكلام يا شادي وكأنني لا انتظر أحدا .. لكن لا بأس من الكلام لحين أن يأتي!! .. وفي الحقيقة ليس هذا هو سبب إلحادي الوحيد ، لكنها أسباب كثيرة ، منها أسئلة أجدها ليس لها أجوبة ، مثل: لماذا خلقنا الله في هذه الحياه ؟!
- ومن أدراك أنَّ هذا سؤال ليس له جواب ، بل إنه لا توجد أسئلة ليس لها أجوبة ألبته ، فلكل سؤال جواب علمه البعض وجهله آخرون .. لكن العاقل من يبحث عن إجابة لسؤاله عند من علمه ويصبر في البحث حتى يصل لإجابته ..
- إنك تطيل الكلام بلا طائل.. سألتُك سؤالا محددا هل هناك سببا لخلقنا في هذه الحياه ؟! .. إنْ كانت عندك إجابة قولها ، وإلا فدعنى فإنني مشغول .
- تمهل يا فادي! .. فالإجابة عنْ هذا السؤال هي أنَّ الله سبحانه لمّا خلق الملائكة لا يعصونه ما أمرهم

ويفعلون ما يؤمرون ، أثبتَ بذلك سبحانه أنه يُعبد قهرا وقوة ، فأراد سبحانه أنْ يخلق خلقا ويدع لهم الحرية في الإيمان أو الكفر به ، فإنْ أتى أحدٌ منهم طائعًا يكون قد أتى بعد حبٍ لله وتودد له سبحانه ، فبذلك يثبت لله تعالى أنه يُعبد حبًا كما عُبد قهرًا ، وهذا الخلق هم الإنس والجن ..

- كلامك جيد وأظن أنني ما سمعته من قبل ، لكن ما الذي يجبرني على عبادة إلهٍ جعل نفسه مستورا عنْ الناس ، فإن كان يريدنا أنْ نعبده فلِمَا لم يظهر لنا عيانا بيانا ! ..
- أنظر! .. أنت الذي تطيل الكلام الآن وليس أنا! .. وعلى كلٍ فبالرغم أنّ الله سبحانه ظاهر بأفعاله ، ولكني سأجيبك على ما قلته لكن أسألك قبل ذلك : هل لو بدى الإله للناس ورأوه بأعينهم هل سيعبده جميعهم؟! ..

- نعم .. بكل تأكيد!.
- هذا ما تقوله أنتَ الآن ، أما إنْ أتى فأنتَ أول شخص لنْ تصدقه ، فسوف تسول لك نفسك حينها وتقول: ربما هذا كائن ضخم جدا !! وليس الإله ! ، وعليه تظل كافرا به كما أنتَ ..
- إذن يلقي الإله في قلوب الناس بأنّه الإله الحق .
- وهذا أيضا لا يمكن ، لأنه بذلك سيكون قد أجبر الناس على الإعتقاد القلبي بأنّه الإله ، وعليه تكون العبادة جبرًا وليس اختيارًا ، ووقتها تفوت الحكمة من خلق الناس ، وهي أنْ يعبدوا الله محبةً كما ذكرتُ لك .. ثم وقتها ستكون الجنه والنار غير مستحقه لأحد ، لأنه قد فات الإختبار الذي يجعل للطائع الجنه وللعاصي النار ، فالله سبحانه أراد أن يصل الناس إليه عن طريق الاستنتاج العقلي وتدبر عظمة الكون حولهم ..

- مهما تقل لي فإنني لنْ أستمع لك ! ، يكفي أنّك طيّرتَ كأسين الخمر منْ رأسي! ، إنني أعتقد ما أعتقد وأفعل ما أفعل لأنني محبٌ للحرية ولنْ أتنازل عنها لأحد كائنا من كان ..
- ومن قال لك إنّك حرٌ فيما تفعل ! ، إنما هي غرائز وشهوات رُكبتْ رغما عنك في نفسك وهي منْ تقودك! .
- وصلنا لمربط الفرس ! ، هذه الملذات رُكبتْ رغما عني في نفسي وعليه فأنا مجبرٌ على فعلها ، فلا يلومني أحد بعد ذلك ، فدعنى وشأني فقد كنتُ أطيل الحديث معك للتسليه ! ، حتى يأتي زائري الذي انتظره هذه الليلة .
- تقول كل هذا الكلام السالف لا طائل من ورائه وكان للتسلية ..
- نعم ! ..

- حسبتُك تريد أن تعقل أو تودّ الوصول للحق .. وعلى كلٍ فهذا أمرك وشأنك ولو كنتُ أعلم ذلك ما أطلتُ معك الكلام ، لكنني أحبُ أنْ أقول لك: إنك تنتظر هذه الليلة زائرةً وليس زائرًا ، وأزيدك من القول : هي ستأتي لقضاء مأرب لك فيها ! .
- نعم هي زائرة وليس زائر ، وكما قلتَ إنها ستأتي لقضاء مأرب لي ورغبة فيها ، لكنْ مِنْ أين عَرفتَ ذلك ، هل تراقبني؟!
- بالطبع لا! لكني أحببتُ أنْ تعلم أنَّ ما تخفيه اليوم حتما سيفضح بعد ذلك ولو طال الزمان..
- ما دمتَ تعلم ، فدعنى إذن حتى أبلغ نزوتي !
- بل لأنني علمتُ فلنْ أدعك ألبته !..
- ماذا تقول ؟! هل أنتَ ولى أمري؟ .. إنك إنْ لم تخرج من بيتي على قدميك فسأخرجك محمولا على خشبه ..

- قل ما تشاء! إنني لنْ أخرج من هذا البيت أبدًا ..

وفي تلك اللحظة إذا بصوت الشيخ قارئ القرآن خارج من العزاء يخترق بيت فادي ، فإلتفت شادي إليه قائلا: إسمع ها قد بدأ العزاء ، فلِمَا لا تأتي لتستمع لشيء من القرآن لعل قلبك يلين ..

فرد فادي بصوت ملؤه الغضب : إنك شخص سمج! ، ولا أعلم أحدا أكثر منك تطفلا وتدخلا في حياة الآخريين .. ونظر للكأس الموضوع على المنضدة أمامه وقال: إنْ لم تخرج فسأُبيتُ هذا الكأس في رأسك .

فلم يُبالي شادي بذلك القول ولم يتحرك من مكانه ، فأسرع فادي فقذف الكأس في رأس شادي فطرح أرضا ، فخيّل لفادي أنّ شادي قد مات لتو ..

ودخلتْ سميرة في تلك اللحظة تماما ، وقد أغلقتْ الباب خلفها ، كما أمرها فادي في مكالمة الهاتف ، وقالت لفادي: إنّي أتيتُ ! هل كنتَ تتكلم مع أحد ؟! ..

.. تجمّد فادي في مكانه ، وأُلقيَ جسمه رغما عنه على الكرسي! ، وجعل ينظر حوله بعينين بارزتين ، وظنّ أنه قد تحول إلى مكان آخر ، فلا يدري فيه ما الذي يحدث له ، وقال بصوت خافت بعيد وكأنه يخرج من شخص آخر : لمْ أتكلم مع أحد ! ..

فقالت سميرة باستغراب : ولكني سمعتُك وأنا بالخارج وكأنك تتشاجر .. ثم نظرتْ إلى مرآة الشيفونيرة التي بالصالة ، فوجدتْها قد كُسّرت تماما منْ أثر الكأس ، فسألته : مَنْ الذي كسَر هذه المرآة ؟!

فظل فادي صامتا كتمثال جالس ، ثم أجاب مقتضبًا : إنها مكسورة منذ زمن ! ..

فأردتْ سميرة أنْ تدلف لغرفة نومه لتخلع ملابسها .. فقال فادي لها ، وقد استجمع بعض قواه : لا تدخلى! وخذي هذا المال ودعني الآن .

فأسَرتْ سميرة في نفسها: " حتما إنَّ في الأمر سرًّا " ، ثم سألته : هل آتيك غدا ؟! .. فأجاب: لا تأتي حتى اتصل بك .. وتمتم بشفتيه : "وربّما لنْ اتصل بكِ بعد هذا اليوم أبدًا!..

.. خرجتْ سميرة من عنده متخفيةً في عباءتها السوداء تشق الحارة ببطء ، لكنّها أحستْ أنَّ بعض النسوه الجالسين في مدخل بيت المتوفي يرمقونها ، فاقتربتْ منهنّ بخطوات مترددة ، ثم جلستْ بجوار أحدهنّ وقالت: البقاء لله !..

في تلك الليلة من ليالي الحارة .. بدى لفادي عصران أنّ هناك فرصة سانحة لنْ تتكرر..